شعر الفقهاء في الأندلس

للباحث عبد الحميد بن صخرية

في الرابع عشر من شهر حزيران ٢٠٠٥ م ناقش الطالب عبد الحميد بن صخرية أطروحة دكتوراه الدولة الموسومة بـ: شعر الفقهاء في الأندلس. أمام لجنة من الأساتذة:

الأستاذ الدكتور العربي دحو مشرفا ومقررا. والدكتور محمد منصوري رئيسا. والدكاترة الأعضاء المناقشين عبد الرحمان تبرماسين. والسعيد خضراوي. والعلمي لراوي.

ونال الطالب الدرجة العلمية التي رافع عنها برتبة مشرف جدا مع تهنئة أعضاء اللجنة.

د. عبد الرحمان تبرماسين – الجزائر

أما موضوع البحث فقد تناول جانبا من أدبنا الإسلامي القديم في منطقة الأندلس والذي لم يوله الدارسون اهتماما رغم أهميته، ولهذا كان طرح الطالب: يندرج في سياق العلاقة بينه وبين الأدب العربي القديم، كما قال: « وهي علاقة حب وإعجاب قبل أن تكون علاقة دراسة، فقد نشأت في داخلي منذ سنوات طويلة خلت يوم أن كنت طالبا أستمع بشغف

كبير إلى دروس الأساتذة بمعهد عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

وتحول الميل من كثرة التأمل في ذلك التراث الثاوي في المصادر إلى رغبة ملحة، للمشاركة في تلك الحركة الفاعلة التي شهدها القرن الماضي، والتي قادتها ثلة من الدارسين آلت على نفسها نفض الغبار عن هذا التراث القابع في زوايا المكتبات.

وقد أثمرت تلك الجهود بحصيلة قوامها عشرات الدراسات ومئات العناوين، وكان أكثر ما يحز في نفسي ويحيرني إغفال تلك الدراسات لأدب فئة يذكرون خطرها في صنع القرار السياسي في الأندلس. ويهملون أدبها في دراساتهم، وأعني بها فئة الفقهاء التي قلما يستشهد بشعرها في تلك الدراسات.

وكانت هذه الظاهرة من الدوافع الأولى في التفكير في عنوان هذه الرسالة. أما الدافع الحقيقي الذي حفزني أكثر فهو تلك الصيحة التي أطلقها المرحوم الأستاذ عبد الله كنون، يدعو الدارسين فيها إلى توجيه الدراسات الأدبية لاستيعاب أعمال الأدباء بالمعنى الواسع وعدم الاقتصار على المنتجات المعروفة والأسماء الرسمية، لأن في كنوز الأدب العربي أعلاما ما زالت لم تدرس أو لم تستشف بعد.

وهكذا تحول الميل والرغبة إلى إصرار على دراسة شعر الفقهاء في الأندلس بعد أن قبل الموضوع، وتأكد لي أنه لم يطرق من قبل إذ لا أعلم – في حدود اطلاعي – من عني بالكتابة حول شعر هذه الفئة غير المرحوم عبد الله كنون في دراسته المقتضبة (أدب الفقهاء) التي عرف فيها بفقهاء من بيئات مختلفة، والدكتور حسني ناعسة في دراسته عن شعر الفقهاء في المشرق العربي، والدراسة الأكاديمية الوحيدة التي تزامن إنجازها مع بحثي هذا هي رسالة الدكتوراه للدكتور محمد مرتاض عن شعر الفقهاء في المغرب العربي، وهو ما يجعل من بحثي المتواضع ثالث الأثافي، لأنه ينبري لدراسة شعر الفقهاء في بيئة غير البيئتين السابقتين.

وإذا كان مجال البحث لا يخرج عن سبعة أشياء كما يذكر المقري في أزهار الرياض عن بعض الأكابر في الصفحة الرابعة والثلاثين من الجزء الثاني «شيء لم يسبق فيؤلف، أو شيء ألف ناقصا فيكمل، أو خطأ فيصحح، أو مشكل فيشرح، أو مطول فيختصر، أو مفترق فيجمع، أو منثور فيرتب» فإن هذا البحث ينفرد على الأقل ببعض ما في الوصفين الأخيرين، إن في جمعه لشعر عشرات من الفقهاء الشعراء

عبدالله كنون

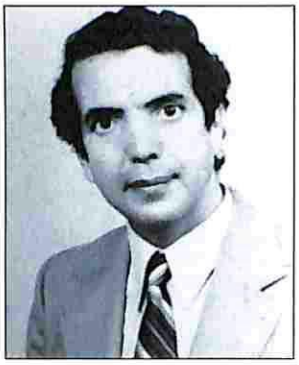

محمد مرتاض

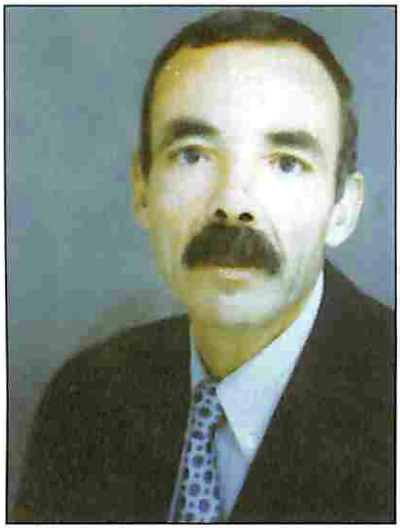

عبدالحميد بن صخرية

كان مفرقا في عشرات المصادر، وإن في تصنيفه وفق موضوعات فكرية وفنية قبل أن يسبر أغواره بما أتيح له من سبل وأدوات. كل ذلك لتحقيق الهدف الأسمى وهو إعادة الاعتبار لهذه الفئة التي غمرته ظاهرة التحامل من قبل بعض الدارسين الذين يصمون شعرها بالضعف الفني في أحكام عامة من غير تعليل أو تبرير.

مع أن الذي لا مراء فيه أن هؤلاء الفقهاء الشعراء كانوا ينظرون إلى الشعر بل الفن كله على أنه رسالة اجتماعية تفرض على الشاعر أو الفنان الالتزام، وتؤمن أن أشد التزام هو التزام «الحق» وذلك ما تنطوي عليه إشكالية البحث التي تتطلب الوقوف عند نقطتين: تتعلق الأولى بالمركب الإضافي لعنوان البحث الذي يقيد مجال البحث في شعر هذه الفئة، ويومي في دلالته إلى خصوصيات يمتاز بها شعرها عن شعر الشعراء الرسميين، أظهرها الجمع بين فنية الشعر وموضوعية الفقه في بنية فنية، ذاب فيها الأصل (الفقه) في الفرع (الشعر) إلى حد التماهي في صنيع ينبئ عن وعي بخصوصيات الشعر وتقاليده الفنية، لأنهم لم يحولوا الشعر إلى فقه، بل حولوا الفقه إلى شعر، وبعبارة أدق حولوا الأفكار والأفعال إلى شعر، وهذا هو الذي غاب عن المتحاملين على شعر الفقهاء الذي لا بد أن ينضح بالألق الفقهي، وما يؤكد أن هؤلاء الفقهاء لم يصرفوا الشعر عن موضوعاته الأصلية من مديح ورثاء وزهد وغزل ووصف للطبيعة، فقد أبقوا على هذه الموضوعات وأضافوا إليها بعض الموضوعات العرضية التي استبعدناها من الدراسة مع الكثير من الأشعار التي يغلب عليها الطابع التعليمي.

وتتعلق النقطة الثانية بتحديد الفترة الزمنية التي تغطيها الدراسة وأساس التحديد فيها كثرة الفقهاء الشعراء في هذه الفترة، وما يترتب عن ذلك من مادة شعرية تكفل للباحث إقامة هيكل البحث من جهة، وتفسح له مجال الاختيار والمفاضلة بين النصوص الشعرية من جهة أخرى.

وقد تطلب المنهاج منا التثبت أولا من الهوية العلمية للأعلام لأن مصطلح الفقيه من الألقاب التشريفية، التي كان الأندلسيون يطلقونها على كل من يريدون التنويه به. وأعترف أن الأمر لم يكن سهلا، لتعدد المعارف التي يجيدها الشخص الواحد، وهو ما حتم علينا الرجوع إلى العديد من كتب التراجم للاطلاع على سير هؤلاء الأعلام للتأكد من هوياتهم الفقهية.

أما هيكل البحث فقد اشتمل على مقدمة ومدخلين وبابين وخاتمة، تناول المدخل الحركة الفقهية في الأندلس فعرض لمكانة الفقهاء في المجتمع الأندلسي عند الخاصة والعامة، وحضورهم القوي في مجالات الحياة المختلفة، من خلال الوظائف التي كانت تسند إليهم، ومشاركتهم الفاعلة في إثراء الحركة الفكرية والعلمية التي أثمرت مئات المؤلفات في مختلف فروع العلم والمعرفة.

وتضمن الباب الأول (الموضوعات الشعرية) خمسة فصول، درس في

الفصل الأول موضوع المدح، وقد تفرع في شعر الفقهاء إلى ثلاثة أنواع: مديح نبوي، ومديح خصوا به أعيان الدولة، ونوع ثالث خصوا به أقرانهم من العلماء، وقد أبانوا في كل ذلك عن شخصياتهم في تعلقها بالماضي المشرق المليء بالرموز الدينية التي اتخذوها وسيلة لإحياء الشعور الديني.

ودرس في الفصل الثالث حول الزهد ذي الغاية التعليمية الإصلاحية بما ينطوي عليه من دلالة تتصل بالدلالة السابقة وهي تنبيه أفراد المجتمع للمآل الذي ينتظرهم إن ركنوا للدنيا واستحوذت عليهم الغفلة.

ولم يكن فصل الغزل إلا أسلوبا للإشادة بعاطفة الحب التي لا تثمر إلا في ظل الإحساس بالأمن، وكان أكثر ما ركزوا عليه في هذا الموضوع ما يهدد هذا الحب من فراق وهجر ومعاناة وكلها عناصر شكلت هاجس الخوف من الغد المرعب الذي تحقق مع مرور الأيام.

واختص الفصل الخامس بوصف الطبيعة بأنواعها، وأبان البحث أنها كانت تمجيدا لله وتدليلا على عظمته، لأن كل شيء فيها يشير إلى نوره الذي عم السماوات والأرض.

أما الباب الثاني (البناء والأدوات) فتضمن ثلاثة فصول، خصص الفصل الأول لدراسة الهيكل العام لشعر الفقهاء لاسيما ما يتعلق بالقصيدة المركبة، التي احتذى فيه الفقهاء النموذج التقليدي في جميع البنيات الجزئية المكونة لها.

واختص الفصل الثاني بالأوزان والقوافي والإيقاع الداخلي وأوضح أن الفقهاء ساروا في ذلك على نهج من سبقهم من الشعراء. وانتهى إلى ملاحظة أن أكثر الأوزان تواترا في شعرهم هو الطويل والكامل ربما لملاءمتهما لطبيعتهم الميالة إلى الاستطراد والتفصيل اللذين يحتاج إليهما أسلوب الوعظ والإرشاد.

أما الفصل الثالث والأخير فخصص لدراسة أنواع الصور التي وظفوها للتعبير عن تجاربهم، وبين البحث كثرة الاعتماد في بناء الصور على العناصر البيانية والبديعية ■

رسالة إلى ليلي الحزين

أديب قبلان - الإمارات

ليلي الحزين!!

مالي أرى مدمعك رطبا تجري فيه قطيرات صغيرة هاربة خارج جفونك، ما رأيتك يوما سهرت وأنت خلف ذلك القمر ترقب النجوم اللامعة في السماء وتتأمل أعدادها!...

■ ■ ■

يا من كنت تراني والليل نبتسم خلف قضبان السماء، هلا أبلغتني عن أخبار ليلي الحبيب! لا جواب... رسائلي احترقت على الطريق الطويل، ولم أتلق أي جواب يذكر

■ ■ ■

كم عانيت من الوحدة بعدك، وكم أتمنى لو أنك تعود لي يوما، تحمل على راحلتك البشرى، ورذاذا من طيب عطر الغياب، حتى نتذوق رائحته خلف ذاك القمر البشوش، وحتى لا ننسى أننا سنبقى أصدقاء إلى الأبد...